عضد الدين ألب أرسلان (٤٥٥ – ٤٦٥ هـ – ١٠٦٣ – ١٠٧٢ م) .

ولى الحكم بعد وفاة عمه طغرلبك ، وأحيا الروح الحربية الاسلامية ، وحمل لواء الجهاد ضد الروم والشيعة على السواء .

يروي ابن الأثير في حوادث سنة ٤٦٣ هـ (١٩٧٠ م) أن السلطان الب أرسلان رأى أن يبدأ بالاستيلاء على حلب وشمال الشام كي يحمي ظهره من الخطر الفاطمي قبل التوغل في أرض الروم شمالا . وعلم أمير حلب محمود بن صالح بن مرداس [1] بهذه الحركة مقدما ، وكان يدين بالمذهب الشيعي ، فجمع أهل حلب وقال لهم : « هذه دولة جديدة ، ومملكة شديدة ، ونحن تحت الخوف منهم ، وهم يستحلون دماءكم لأجل مذاهبكم . والرأي أن نقيم الخطبة قبل أن يأتينا وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل . فأجاب المشايخ إلى ذلك ، ولبسوا السواد ، وخطبوا للقائم بأمر الله والسلطان . فأخذت العامة حصر الجامع وقالوا : هذه حصر علي بن أبي طالب ، فليأت أبو بكر بحصر يصلي عليها الناس !! .

وأرسل الخليفة القائم إلى محمود بن مرداس الخلع مع نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي فلبسها ومدحه الشعراء .

وبعد قليل وصل السلطان ألب أرسلان إلى حلب ، وكان مندوب الخلافة لا يزال بها ، فطلب منه الأمير محمود أن يخرج إلى السلطان ليعفيه من الحضور عنده والمثول بين يديه ، فخرج نقيب النقباء وأخبر السلطان بأن الأمير محمود قد لبس الخلع القائمية وخطب . فقال السلطان : « أي شيء تساوي خطبتهم وهم يؤذنون : حي على خير العمل ؟ (الأذان عند الشيعة) ولا بد له من الحضور ودوس بساطي » . فامتنع محمود من ذلك . فاشتد الحصار على البلد ، وغلت

(١) بنو مرداس سلالة من عرب الشام من بني كلاب ينتمون إلى صالح بن مرداس الكلابي الذي استقل بحكم حلب عن الفاطميين سنة ١٠٢٣ م وحموا شمال الشام من هجمات البيزنطيين

الأسعار ، وعظم القتال . فلما عظم الأمر على محمود ، خرج ليلا ومعه والدته منيعة بنت وثاب النميري ، فدخلا على السلطان وقالت له : هذا ولدي ، فافعل به ما تحب . فتلقاهما بالجميل ، وخلع علي محمود ، وأعاده إلى بلاده ، فأنفذ إلى السلطان مالا جزيلا [1] .

لم يكتف ألب أرسلان بالاستيلاء على حلب ، بل أرسل في نفس هذه السنة أميرا تركيا يدعى أتسز بن أوق الخوارزمي إلى جنوب الشام أي إلى فلسطين وكانت تحت حكم الفاطميين ، ففتح مدينة الرملة ، وبيت المقدس وما جاورها من بلاد ما عدا عسقلان مفتاح الطرق المؤدية إلى مصر ، ثم قصد مدينة دمشق وحاصرها وخرب أعمالها وقطع الميرة عنها ولكنه لم يستطع دخولها .

وهكذا يتضح من تحركات جيوش ألب أرسلان في بلاد الشام أنها كانت تهدف إلى ضرب القوى الشيعية في تلك البلاد قبل التوجه شمالا إلى آسيا الصغرى لجهاد البيزنطيين .

كان الامبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينيس Romanus Diogenes قد خرج في ذلك الوقت لمهاجمة الديار الإسلامية في نحو مائتي ألف مقاتل من الروم والروس والفرنج والأرمن وغيرهم من طوائف تلك البلاد ، في تجمل كثير وزي عظيم . ثم تقدم في زحفه شرقا حتى بلغ بلدة ملاذكرد Malazgerd من أعمال خيلاط على الفرات الأعلى شمالي بحيرة فان Van عند أرمينيا . ويبدو أنه كان يريد اختراق ثغور المسلمين من ناحية الجزيرة والتوغل في الأراضي الإيرانية . وفطن ألب أرسلان لخطة العدو وكان في ذلك الوقت قد بلغ أذربيجان في خمسة عشر ألف فارس فقط . فتقدم من فوره لوقف زحف العدو . ويقال إنه انزعج عندما شاهد ضخامة جيش العدو لدرجة أنه أرسل إلى الامبراطور رومانوس يطلب المهادنة ، وكان هدفه من ذلك كسب الوقت ريثما تصله

---

(١) ابن الأثير : الكامل حـ ١٠ ص ٦٣ – ٦٤ .

الامدادات . ولكن الامبراطور أصر على الحرب ومواصلة الزحف وقال : لا هدنة إلا بالري ! [1]

عندئذ قرر السلطان مواجهة العدو ، واختار بأن يكون اللقاء في يوم الجمعة وفي الساعة التي يكون فيها الخطباء على المنابر يدعون للمجاهدين بالنصر . فلما كانت تلك الساعة على بجنوده وقال لهم : « من أراد الانصراف فلينصرف ، فما ها هنا سلطان يأمر وينهي . انني أقاتل محتسبا صابرا ، فان سلمت فنعمة من الله ، وان كانت الشهادة فإن ابني ملكشاه ولي عهدي » ، ثم ألقى القوس والنُّشّاب ، وأخذ السيف والدبوس ، وعقد ذنب فرسه بيده ، وفعل عسكره مثله ، ولبس البياض وتحنط ، وقال : إن قتلت فهذا كفني . ثم زحف نحو الروم ، فلما قاربهم ترجل وعفر وجهه على التراب وأكثر الدعاء ، ثم ركب واندفع نحو العدو وحملت العساكر معه حملة رجل واحد ، فقتل المسلمون في الروم كيف شاؤوا ، وأنزل الله نصره عليهم ، فانهزم الروم وقتل منهم ما لا يحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى ، وأسر ملك الروم رومانوس ، أسره مجاهد مسلم أراد قتله ولم يعرفه فقال له خادم مع الملك : لا تقتله فإنه الملك . وسيق الملك إلى السلطان ألب أرسلان فضربه ثلاث مقارع بيده وقال له : ألم أرسل إليك في الهدنة فأبيت ؟ فقال : دعني من التوبيخ ، وافعل ما تريد . فقال السلطان : ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني ؟ فقال : أفعل القبيح . قال له : فما تظن أنني أفعل بك ؟ قال : إما أن تقتلني ، وإما أن تشهّر بي في بلاد الاسلام ، والأخرى بعيدة ، وهي العفو وقبول الأموال ، واصطناعي نائبا عنك . قال : ما عزمت على غير هذا . وافتدي الامبراطور نفسه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ، وتعهد أن يرسل إلى ألب أرسلان عساكر الروم في أي وقت طلبها ، وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم ، وأن تعقد الهدنة بينهما لمدة خمسين سنة . وقد أكرم

---

(١) الرى مدينة قديمة في جنوب ايران وقد اشتهرت في العصر السلجوقي بصناعة الخزف ذي البريق المعدني كما كانت منازلها كما يقول ياقوت من الآجر المحكم الملمع بالزرقة المدهون كما تدهن الغضائر أي الخزف .

الب ارسلان الامبراطور بعد عقد الصلح ، فأرسل اليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها وأطلق له جماعة من البطارقة . ويقال إن الامبراطور سأل قبل رحيله : أين جهة الخليفة » ؟ فدل عليها ، فقام وكشف عن رأسه وأومأ إلى الأرض بالخدمة . ثم شيعه السلطان فرسخا ، وأرسل معه عسكرا أوصلوه إلى مأمنه [1] .

تعتبر موقعة ملاذكر أو منزكرد سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) من المواقع الحاسمة في التاريخ إذ نتج عنها نتائج سياسية وحربية خطيرة في تاريخ هذه المنطقة أهمها :

١ — مهدت الطريق أمام جيوش المسلمين للتوغل في بلاد آسيا الصغرى واقتطاع هذه الأقاليم الأسيوية من ممتلكات الدولة البيزنطية لأول مرة . فقد وجه إليها ألب أرسلان ابن عمه سليمان قتلمش الذي استوطنها برجاله وأقام هناك دولة سلاجقة الروم ، نسبة إلى بلاد الروم التي قامت فيها . وستكون هذه الدولة هي أطول الدويلات السلجوقية عمرا ، اذ ستظل قائمة إلى أن يقضي عليها الأتراك العثمانيون في أواخر القرن ١٤ م .

٢ — كانت هذه الوقعة من أهم الأسباب التي أدت إلى قيام الحروب الصليبية سنة ١٠٩٦ م . ذلك لأن أخبار هزيمة الروم وعدم تمكنهم من حشد جيش آخر لرد الخطر التركي ، أثار مخاوف الدول الأوربية . صحيح أن العلاقات بين روما والقسطنطينية كانت عدائية بسبب ما قام بين الكنيسة البيزنطية والكنيسة الرومانية من خلاف مذهبي انتهى بانفصال الكنيسة الشرقية في القسطنطينية عن الكنيسة الغربية في روما سنة ١٠٥٤ م أي قبل موقعة ملاذكرد بنحو ثمانية عشر عاما ، إلا أنه على الرغم من ذلك كان الغرب اللاتيني ينظر إلى الدولة البيزنطية على أنها الحصن الأمامي الذي يحمي المسيحية ضد الإسلام في الشرق ، ومن ثم يجب على الغرب المسيحي أن يمد لها يد المساعدة .

وقد اهتم البابوات في روما بأمر هذه المساعدة ، نذكر منهم البابا جريجوري

---

(١) ابن الأثير : الكامل حـ ١٠ ص ٦٦ وما بعدها .

السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥ م) ، والبابا أوربان الثاني (١٠٨٨ — ١٠٩٩ م) فأخذوا يحرضون ملوك أوربا على مساعدة بيزنطه واتخذوا من هذه المسألة عاملا مهما لتحقيق أهدافهم الصليبية .

لم يعش ألب أرسلان بعد هذا النصر مدة طويلة ، إذ تروي المصادر انه اتجه بجيش كبير نحو بلاد ما وراء النهر للقيام بغزوة هناك في بلاد التركستان . ويبدو من كلام ابن الأثير أن تصرفات جنود السلطان أثناء عبورهم نهر جيحون قد أثارت استياء الأهالي وغضبهم لدرجة أن أهالي بخاري وسمرقند أخذوا يتلون القرآن ، ويكثرون الدعاء إلى الله كي يكفيهم شره . ثم حدث أن سب السلطان مستحفظ لقلعه هناك اسمه يوسف الخوارزمي ، فغضب السلطان وأخذ القوس والنشاب وأمر الحراس بتركه ثم رماه بسهم فأخطأه — ولم يكن يخطىء سهمه — فوثب عليه يوسف وضربه بسكين كانت معه في خاصرته فجرحه جرحا بليغا مات على أثره سنة ٤٦٥ هـ بعد أن أوصى لولده ملكشاه من بعده .

بقي أن نشير إلى أن عصر ألب أرسلان ومن سبقه من سلاطين ، رغم كونه مزدحما بالأعمال الحربية والتحركات العسكرية ، إلا أنه كان في الوقت نفسه مزدهرا في النواحي العلمية والأدبية والفنية . ويلاحظ أن هؤلاء الأتراك السلاجقة في حركتهم نحو الغرب ، قد تحضروا بأول حضارة قابلتهم ، وهي الحضارة الايرانية في عهد السامانيين والغزنوبيين . وعندما زحفوا إلى آسيا الصغرى وكونوا هناك دولتهم المعروفة بدولة سلاجقـــة الروم ، كانت الحضارة الفارسية هي معينهم أيضا . فكانت الفارسية هي لغة الأدب والتـــأليف ، وكانت قصور السلاطين تزدان بالفنون الإيرانية وأبيات الشاهنامه الفارسية رغم ما هو معروف من عداء الشاهنامه الصريح للأتراك [1] .

وفي عهد ألب ارسلان ظهر الوزير نظام الملك الطوسي [2] والشاعر الفلكي

---

(١) طه ندا : النوروز في الآداب الاسلامية ص ٩ .

(٢) نسبة إلى مدينة طوس أو مشهد في شمال شرق ايران قرب مرو وكانت من أهم المراكز للدراسات العلمية والدينية وبها قبور الا مام علي الرضا وهارون الرشيد والغزالي والفردوسي صاحب الشهنامة .

عمر الخيام وان كان دورهما العلمي الحقيقي لم يظهر بوضوح إلا في عهد خلفه السلطـــان ملكشاه . كذلك ازدهرت الصناعات الخزفيـــة والمعدنية ويكفي أن نشير إلى التحف الجميلة المتخلفة عن هذا العصر مثل الصينية الفضية [1] في متحف بوسطون بأمريكا ، وهي تمثل ذروة الازدهار الفني والجمال الزخرفي في ذلك العصر ، وقد نقش عليها بالخط الكوفي لقب السلطان ألب ارسلان في الوسط وهو : عضد الدين . ثم نقش حول حافتها من الداخل : تقديما للحضرة الأجل السلطان المعظم ألب أرسلان أدام الله ملكه . أمرت به ملكة الزمان ، قبلة أهل العصمة . صنعه حسن القاشاني في تسع وخمسين وأربعمائة [1] .

---

(١) زكي حسن : الفنون الإيرانية في العصر الاسلامي ص ٢٥٢ واللوحة ١٢٧ ؛ عبد الفتاح السرنجاوي المرجع السابق ص ١٦٥ .